الفصل التاسع عشر

جهينة والعباسيون

في وادي النيل

لقبيلة جهينة أثر كبير في القبائل العربية التى هاجرت إلى وادى النيل سواء أكان ذلك عن طريق سيناء أم البحر الأحمر أم باب المندب ، أم المغرب العربي . وإن معظم هذه القبائل العربية التى استوطنت السودان فيما بعد يرجع أصلها إلى جهينة ، وربما أرجعت بعضها نسبها إلى قبائل أخرى . وقد تلجأ بعض هذه القبائل إلى إرجاع نسبها إلى جهينة ، وفي نفس الوقت يخلطون معه نسبا شريفيا أو هاشميا أو علويا أو عباسيا بحيث يصعب على المرء أن يوفق بين ما يقول نسابو هذه القبائل العربية وما يقوله الكتاب العرب الذين تابعوا هجرات القبائل العربية من جزيرتهم إلى سائر الأمصار التى وصلوا إليها . ومما لا شك فيه أن السودان كان موطن تفاخر في الأنساب بين القبائل العربية التى هاجرت إليه .

بيد أن مزيداً من التمحيص والتدقيق يظهر أن هذه الأقوال ليست بمزاعم كاذبة ، ولكنها تعود إلى صلات في المصاهرة والنسب والاستيطان في منزل واحد . كذلك فإنها تنتج عن مصاهرة بشيوخ البطون ، ثم ما يلبث أن يصبح أبناء هذه المصاهرة ذوى نفوذ كبير ، ومكانة مرموقة بين بقية بطون القبيلة وأفخاذها . كذلك فإنهم قد يعمدون إلى الاحتفاظ بالسمعة الحسنة التى جاءتهم عن طريق الأمهات مع الحفاظ على نسبهم من ناحية أبيهم ، فيزدادون بذلك فخرا على فخر كما هي عادة العرب الذين كثيرا ما

يفخرون بأنهم معمون مخولون ، وأنه لا مطعن فيهم سواء من جهة الأب أو الأم .

ولهذا فإن على المرء أن يأخذ في الاعتبار هذه الأسس عندما يجد تضاربا في نسب القبائل العربية السودانية أو أي قبيلة مهما كان موقعها قبل أن يعمد إلى رفض ما نسبوه لأنفسهم [1] . والعربي بطبيعته يشعر بعزة أيما عزة حين الانتساب لقبيلته حتى ولو كان باهليا ، وليس هناك من عربي يقبل لنفسه الدنية حين يجئ يوم الفخار ، فهو دائما أحسن الناس حسبا ونسبا ومحتدا . وعلى الرغم من أن الدين الإسلامي الحنيف أراد أن يمحو هذه النعرة القبلية بما جاء من نص في القرآن الكريم وما جاء من ذلك في الحديث الشريف ، الا أن العرب لم يستطيعوا أن يتخلصوا من هذه النعرة حتى يومنا هذا . وبالطبع لولا أن هذه الخصلة متأصلة في نفوسهم وكبريائهم لما ظلت سائدة على تفكيرهم وهم الذين هجروا الشرك بالله وآمنوا بوحدانيته وبرسوله الكريم خاتم النبيين (ص) . ومما لا ريب فيه أن هذه الخلة تزول مع اتباع النهج الإسلامي الصحيح ، والعلم والتفكير السليم .

أما هذه القبائل العربية السودانية التى ذكرت أنها من جهينة فإنها لم تذكر ذلك إلا لأنها تعرف حق المعرفة أنها من تلك القبيلة الضخمة التى ذكر لنا ابن خلدون عنها أنها كاثرت الأمم في الأراضى السودانية ، وأنها أرهقت مملكة علوة النوبية السودانية ، وأنها كالت الضربات للحبشة حتى أضعفتها ، وكيف أنها في آخر الأمر تغلبت على مملكة علوة النوبية وورثت أراضيها شيئا فشيئا وانتشرت فى بقاعها الدانية والقاصية .

---

[1] يقول محمد صالح ضرار بأن كتاب الانجليز دائما يعترضون على انتساب القبائل السودانية الى العرب وذلك لجهلهم باهتمام العرب بأنسابهم .

والعرب لا يدعون نسبا ليس لهم لأنهم أعرف الناس بأنسابهم وأصولهم ، ولو ادعى أحدهم نسبا ليس له فانه لن يسلم من ألسنة بقية القبائل العربية وشعرائها . وقد كانوا يهتمون غاية الاهتمام بتلك الأنساب ، ويعرفون أين رحلت فروعها ، وأين حلت ، وهل هناك أغرب من أن يقوم بدوى من قبيلة رفاعة القضاعية الجهنية من الجزيرة العربية ويتوجه إلى جنوب مدينة سنار وما وراءها لطلب العون من قبيلة رفاعة التى هاجرت إلى تلك الأصقاع في القرن السابع الهجرى أو قبل ذلك . وكانت رحلته التى قام بها في سنة ١٨١٤م (١٢٣٠هـ) . وقد قص علينا السائح السويسرى بوركهارت هذه القصة في رحلته إلى النوبة إذ قال :

" نزل شندى حين كنت بها عربي قادم من سواكن ، وكان من عشيرة رفاعة التى تنتسب إلى قبيلة كبيرة تجاور ينبع هى قبيلة جهينة . وأخبرنى الرجل أن من أبناء عشيرته رفاعة – فيما سمع – قوما نزلوا جنوب سنار ، وأنه ينوى أن يلم بهم طلبا لعطاياهم لأنهم كانوا يعطفون على ذوى قرباهم بالحجاز ، لا سيما على الذين يتجشمون منهم مشقة الرحلة للسلام عليهم ، وكان على علم باسم أحد مشايخ رفاعة وبموطنه من شاطئ النهر على نحو ستة أيام من سنار ، وغادر الرجل شندى في قافلة سنار قاصدا هذا الشيخ ".[٢]

فمن الواضح أنه بالرغم من أن رفاعة كانت هجرتها إلى السودان فيما قبل سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١م إذ أنها في ذلك التاريخ دخلت في نزاع مع جهينة ،[٣]إلا أن أخبارها ظلت معروفة لدى بطون رفاعة الذين قبعوا في

---

[٢] رحلات بوركهارت في بلاد النوبة والسودان . ترجمة فؤاد الدراوس .

[٣] مسعد – المكتبة العربية السودانية ص ٣٣٣ عن السلوك للمقريزى .

الجزيرة العربية ، والذين كانوا يتتبعون أخبارهم وترحالهم في الأراضي السودانية حتى أصبحوا عارفين بأنهم كانوا ينزلون على مسيرة ستة أيام جنوبي سنار رغم هذه القرون الطويلة التى مرت على رحيلهم من الجزيرة العربية . وهذا يدل على أنه كانت هناك زيارات بين من في السودان ومن في الجزيرة العربية طوال تلك القرون. ومن يدري فلو استمرت الحكومات في البلاد الإسلامية كما كانت عليه في قديم العهود ، ولم تتطور نظم الجوازات والجمارك والحدود لظلت تلك الروابط القبلية والعشائرية قوية الصلة ، إذ من كان يظن أنه بالرغم من مرور أكثر من ستمائة سنة على هجرة قبيلة رفاعة من الجزيرة العربية تظل أخبار هذه القبيلة في موطنها الجديد بالسودان معروفة لدى أبناء عمومتها في بلاد العرب . وهذا في حد ذاته دليل على أن الأنساب العربية ليست مما تضيع معالمها .

فالعرب في تلك القرون الماضية كانوا يعرفون مواطن بطون القبيلة، وأين ذهبت ، وكيف يمكن الاتصال بين بطن وبطن ، وعشيرة وأخرى . وكان كتاب العرب ومصادرهم قد اهتموا أشد الاهتمام بالقبائل العربية وفروعها ومواطن نزوحها ، وتعقبت ذلك طيلة عهود التدوين . ولم يضعف هذا البحث الا عندما تولت الخلافة العثمانية مقاليد الأمور في البلاد الإسلامية ، فضعفت تلك الاتصالات التى كانت بين مختلف الأصول والفروع [٤]. وهذا ما رأيناه يحدث في هذه الحادثة التى ذكرت هنا ، والتى ، وان كانت حادثة واحدة الا أنها توضح مدى قوة الصلات التى كانت سائدة بين من كان في الجزيرة العربية وبين من نزح منها ، إلا أنها لم تجد من يتناولها من المؤرخين .

---

[٤] كذلك ضعف تدوين أصول بعض القبائل وبطونها وفروعها ومواطنها .

كانت قبيلة جهينة وبلي فرعين من فروع قبيلة قضاعة اليمنية . وكانت كلتاهما تسكن متجاورتين في جنوبي اليمامة ، وشمايى اليمن والشحر . وفي فترة الهجرات العربية التى انتشرت في الجزيرة العربية هاجرت هاتان القبيلتان معا إلى الأراضى الحجازية ، ثم سارت بطون منها الى الشام الكبير ، وبقيت بعضها في الحجاز ، كما هاجرت فروع من بلي قبل الميلاد إلى الشواطئ الغربية من البحر الأحمر كما بينا عند الحديث عن بلي .

ولما جاء الإسلام كانت جهينة من أولى القبائل التى دخلت فيه ، وهاجر أناس منها من ديارهم في الحجاز إلى المدينة المنورة ، وجعلوا لهم خطة فيها ، وأقاموا بها مسجدا .

وقد شاركت جهينة في نشر الإسلام وخاصة عند فتح مكة حيث كانت من بين جنود خالد بن الوليد (ض) سنة ٨هـ / ٦٢٩م ، ثم سارت جماعات منها بعد ذلك في جيوشه حيث اشتركوا معه في الفتوحات الإسلامية ، وأبلوا بلاء حسنا في بلاد الشام .

والمتتبع لتاريخ قبيلة جهينة سواء أكان ذلك في الجزيرة العربية أو الشام أو مصر أو العراق أو السودان يشعر بأن هذه القبيلة كانت كبيرة العدد ، إذ أنها استطاعت أن تنتشر في كل هذه البلاد ، وكانت قوة مؤثرة فيها ، ولم تذهب ريحها رغم اتساع الرقعة التى انتشرت فيها .

ومنذ أن اتخذت جهينة الحجاز موطنا لها سكنت جماعات كبيرة منها في ينبع وما حولها ، كما ذهبت جماعات كبيرة منها مجاهدة في عهد الفتوح الأولى وخاصة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (ض) إلى أمصار الدولة الإسلامية كالشام حيث استقرت في تلك النواحى .

أما تلك العشائر الجهنية التى استقرت في الحجاز وحول المدينة المنورة وفي ينبع التى أصبحت قصبة لها ، فإنهم لزموا حياة الاستقرار هناك منذ صدر الإسلام . فلما قامت الفتنة الكبرى ضد أمير المؤمنين عثمان أبن عفان (ض) ، ابتعد سيدنا علي بن أبى طالب (ض) عن المدينة المنورة التى حوصر فيها الخليفة عثمان ، وذهب إلى ينبع مقيما فيها ، ثم أصبحت فيما بعد " مقرا لأبنائه من بعده ، فاختلطوا بجهينة وصاهروها وحالفوها ، وامتزجوا بها في النسب منذ ذلك العهد . " [٥]

ويضيف حمد الجاسر في نفس المقال حين يتحدث عن " جهينة وفروعها قديما وحديثا " أن حكام مكة المكرمة من العلويين المستوطنين في ينبع كانوا يجدون من جهينة أقوى سند لهم في حروبهم . وعندما قام جد هؤلاء الحكام وهو الأمير قتادة ببسط نفوذه حتى يشمل مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ويمتد إلى بلاد نجد كان بنو إبراهيم – المعدودون من جهينة – عماد جيشه ، وأساس قوته ، وذلك في سنة ٥٩٩هـ ".

وكما يقول فإن بنى إبراهيم هؤلاء " من أبرز بطون جهينة ، وهم في الأصل فرع من العلويين الحسينيين الأشراف ، وأنهم دخلوا في جهينة منذ صدر الإسلام ، فاختلطوا ببطونها ، ولم تقف حوادثهم حتى تدخل حكام مصر بإرسال جيش لغزوهم " في ديارهم على الطريق بين مصر والمدينة المنورة . ويؤكد لنا كحالة بأن بنى إبراهيم هم عشيرة تعرف بذوى إبراهيم من الأشراف من سلالة السبطين الحسن والحسين بالحجاز . [٦]

---

[٥] حمد الجاسر : مجلة العرب ج ١ و ٢ – س ١١ رجب – شعبان ١٣٩٦ يوليو / أغسطس ١٩٧٦ – الرياض .

[٦] كحالة – القبائل العربية ج (١) صفحة ٢

وعن أخبار هؤلاء العلويين يضيف حمد الجاسر " أن الشريف محمد أبن أبى سعد من آل أبى نمي كان قد فر من مكة المكرمة بعد أن كان ملكا عليها سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧٧م ولجأ الى ينبع حيث استجار بصاحبه إدريس أبن قتادة الذى سار معه برجاله حتى أعاد له مكة " . [٧]

ولم تكن حياة جهينة في شمالى الحجاز حياة هادئة ينعم فيها رجال جهينة بالأمن والاستقرار ، بل كانت حياتهم عرضة لموجات الجفاف والمجاعات . ولما أصبح طريق الحاج القادم بين مصر وبلاد افريقيا يسير عن طريق سيناء أصبحت ديار جهينة في طريق الحجاج ، فكانوا ينتفعون من قوافل الحج التى تمر ببلادهم ويأخذون منها مكوسا تدفع لأمرائهم ورجالهم فيجدون من ذلك رزقا . كذلك فإنه عندما كان حكام مصر يهيمنون على جدة ويفرضون سلطانهم على العلويين حكام الحرمين الشريفين كان هؤلاء الولاة الأشراف يثيرون زعماء جهينة بشمال الحجاز ليثيروا الاضطرابات ويهددوا القوافل ، ومن مثل هذه الإثارات يستطيع كل من زعماء جهينة والأشراف العلويين أن يكونوا في موقف يستطيعون فيه أن يطلبوا أموالا لتهدئة خواطر الثائرين من القبائل البدوية . وكان التعرض لقوافل الحجاج يمثل الأداة التى يضغط بها كل من رجال جهينة والأشراف على حكام مصر الذين يقومون بالتسلط على ولاة الحرمين الشريفين .

وعندما وصل ابن بطوطة إلى سواكن حوالى سنة ٧٢٦هـ ١٣٢٥م بعد عودته من الحج وجد أن أمير سواكن كان من الأشراف العلويين الذين يحكمون مكة المكرمة ، وكان أميرها في ذلك الوقت الشريف زيد بن أبى نمي . وكان أبوه أمير مكة ، وأخواه أميريها بعده وهما عطيفة ورميثة .

---

[٧] حمد الجاسر – مجلة العرب .

ويقول " بأن سواكن صارت إليه من البجاة فإنهم أخواله " : ويضيف ابن بطوطة بأنه كان مع الشريف زيد بن أبي نمي عسكر من البجاة وأولاد كاهل وعرب جهينة . غير أنه لم يذكر عما إذا كان بنو كاهل وجهينة بصفة خاصة قد انضموا إليه عن طريق عبورهم من الحجاز مباشرة إلى سواكن أم أنهم كانوا قد فروا من أمام الاضطهاد المملوكي الذى كان يتعقب القبائل العربية في صعيد مصر ، بل وحتى في الأراضى السودانية . ولكن لا يستبعد أن تكون جماعات منهم قد هاجرت مع الشريف وأجداده إلى سواكن لأنهم كانوا عضدا له في بسط نفوذه وسلطته .

وفى أثناء رحلته تلك وجد ابن بطوطة في الفلاة بين سواكن وعيذاب صبيا من العرب يتكلم باللسان العربى ، وأخبره أن البجاة أسروه ، وزعم أنه " لم يأكل طعاما إنما يقتات بلبن الإبل "[٨] . ثم ما لبث أن وجد هذا الرحالة جماعة أخرى من العرب إذ أنه خرج بصحبة طائفة من عرب دغيم ، كما كان قد قابل من قبل " حيا يعرفون بأولاد كاهل مختلطين بالبجاة عارفين بلسانهم " ، كما وجد عيذاب يحكمها الحدربى ملك البجة ، وكان يحارب الأتراك ، ويعنى بهم جنود المماليك التابعين لسلاطين مصر .

عندما خرجت جماعات جهينة وبعض من بلي من الشام إذعانا لأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (ض) [٩]الذى أمر بإخراج ثلث قضاعة من الشام استقروا جميعا فى أجزاء من مصر منها أرض الأشمونين ، كما خرجت بطون منها إلى صعيد مصر خاصة عندما عرفت مواطن التبر في وادى

---

[٨] أرى أن جملة ابن بطوطة هذه مقتضبة ولعل المراد أن هذا الصبى لا يأكل طعاما غير لبن الابل وأن استعمال حرف " لم " في غير موضعه .

[٩] حمد الجاسر – مجلة العرب .

العلاقي ، وبدأ العرب في استخراجه . وكانت جهينة كربيعة تعرف شيئا عن تعدين الذهب والفضة منذ أن كانت تستخرجهما في ذى المروة [١٠] وما حولها في الجزيرة العربية . ولذلك فقد اشتركت جهينة فى التعدين طلبا للذهب . واتصل بهم هناك العمري كما سبق أن رأينا في منتصف القرن الثالث الهجري ، وحاول أن يضمهم إليه للقضاء على كل من مملكة النوبة ومملكة البجة وإقامة إمارته المستقلة هناك في سنة ٢٥٥هجرية / ٨٦٩م . وكانت جهينة حين ذهبت إلى وادى العلاقي قد جاورت ربيعة ، ثم ما لبثت أن انضوت تحت لواء أبى مروان بشر بن إسحاق الربعي وأخواله ملوك البجة عبدك وكوك ، وكان الجهنيون يمثلون ثلث القوة العربية في جيش بشر وهم اليمانية الذين كانوا ألف مقاتل ، وذلك سنة ٣٣٢هـ / ٩٤٥م . ولذلك فقد كانت لجهينة نواة في الصعيد وأرض البجة ، كما كان لهم مستقر في بلاد الأشمونين .

بيد أن مقرهم في الأشمونين ما لبث أن جاءت إليه جماعات من قريش في أيام الفاطميين . وكان الفاطميون يعملون جاهدين على تقوية نفوذهم في العالم العربي الاسلامي ، ولذلك فقد رأوا أن يقربوا إليهم القرشيين وذلك بإعطائهم موطنا حسنا في مصر . فما كان منهم إلا أن أجلوا جهينة وبليّا من منطقة الأشمونين وجعلوها للقرشيين الذين كان نفوذهم الأدبى والاجتماعي والسياسي محل تقدير عند الفاطميين الذين أرادوا أن يكسبوا تأييدهم . ورحلت جهينة مع بلي إلى صعيد مصر الأعلى ، ثم ما لبثت جهينة أن اتصلت ببقية فروعها هناك ، كما أنها أخذت تشق طريقها إلى داخل

---

[١٠] المسعودى : مروج الذهب .

الأراضى السودانية الحالية التى كانت تحت سلطة مملكة البجة من ناحية الشرق ، ومملكة علوة النوبية من الناحية الوسطى .

هكذا وجدت جهينة نفسها في حالة من عدم الاستقرار حين خرجت من الأشمونين ، فهى حين وصلت إلى الصعيد شهدت بعض العنت كسائر القبائل العربية الأخرى من أمير الجيوش بدر الجمالي وزير الدولة الفاطمية الذى كال الضربات للعرب والجند السودان الذين كانوا قد جندهم الخلفاء الفاطميون في كل مكان ، وحتى في صعيد مصر حتى أجهز عليهم تماما ، فلم تقم لهم قائمة في تلك الفترة . ويقول المقريزي بأن بدر الجمالى " سار إلى الصعيد فحارب جهينة والثعالبة ، وأفنى أكثرهم بالقتل ، وغنم من الأموال ما لا يعرف قدره كثرة ، فصلح به حال الإقليم بعد فساده " . [11] فلم يكن حال جهينة بالصعيد بأحسن من حالها في الأشمونين ، ولذلك فإن من بقي منها هناك لا شك في أنه قد أخذ يعد العدة للحاق بأبناء ربيعة الذين كانوا أمراء على البجة واختلطوا بهم ، إذ أن فرع ربيعة الذى لقب زعيمه بكنز الدولة كان قد واجه مصيرا قاسيا على يد بدر الجمالي الذى قبض عليه وأسره ثم أعدمه في سنة ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م كما مر بنا في الحديث عن ربيعة .

لم تشأ كثير من بطون جهينة البقاء في مصر بسبب ما قام به أمير الجيوش بدر الجمالي من اضطهاد لها وقتل ، فأسرعت جهينة مع بعض القبائل الأخرى إلى الهجرة إلى الأراضى السودانية تجنبا لذلك الاضطهاد وما تبعه . وقد لخص لنا تاريخ جهينة عند نزوحها إلى السودان ابن خلدون إذ وصف هذه الهجرة " بأن جهينة انتشرت ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة ، وكاثروا

---

[11] المقريزى : الخطط – بيروت جزء أول ص ٣٨١-٣٨٢ في حديثه عن " باب الفتوح "

هناك سائر الأمم ، وغلبوا على بلاد النوبة " . ويوضح عبد المجيد عابدين بأن دخول جهينة إلى السودان ، " كان في أغلب الظن على مراحل متفاوتة ، وفي أزمان مختلفة " . [١٢] وهذا يتضح لنا جليا من تتابع الأحداث ، فهم كانوا في الصعيد أيام العمري (سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨م) لمحاربة النوبة والبجة حين وجدهم هناك ، وقد استقرت بطون منهم لمزاولة استخراج التبر ، وقد أشركهم في حروبه التي خاضها أول الأمر حتى هجروه في الآخر . ثم إنهم في حوالي سنة ٣٣٢هـ الموافق ٩٤٣م كانوا مع بشر بن إسحاق حين استولت ربيعة على ملك الحدارب زعماء البجة وأصبحوا هم أصحاب أرض المعدن في وادي العلاقي . أما أولئك الربعيون الذين كانوا على النيل بالقرب من أسوان فقد تعرضوا لانقضاض أمير الجيوش بدر الجمالي عليهم في سنة ٤٦٩هـ / ١٠٧٦م حين داهمهم هم والثعالبة وبنو كنز الدولة .

وما أن انتهى العهد الفاطمي ، وبدأ العهد الأيوبي حتى كال لهم شمس الدولة توران شاه الضربات حتى قضى عليهم وعلى كل قوة كانت للعرب ومنهم جهينة .

أما المماليك فقد كانت ضرباتهم للعرب قاطبة متواصلة طيلة قرون حكمهم على مصر (٦٥٤ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٤ - ١٥١٧م) ولم تتوقف مطلقا . وهكذا فإن جهينة لم تجد الفرصة للاستقرار في مصر ، بل كانوا طيلة تلك القرون هدفا لمن قام بولاية الأمر في مصر . فلجأت القبيلة آخر الأمر إلى السودان ، وأصبحت فيه قوة تكيل الضربات لكل من الحبشة والنوبة لتجد لها مستقرا في تلك الجهات .

---

[١٢] عبد المجيد عابدين – المقريزي : البيان والاعراب .

وكان من أثر هذه الضربات التى تلقاهـا العـرب أن نزحـت عشـائر كثيرة منهم ومن جهينة تاركين وراءهم فى مصر جماعات أخرى مازالت باقية فيها حتى هذا اليوم وذلك في أسيوط ومنفلوط وغيرهما .

ولم تكتف جهينـة بـالنزوح إلى أطـراف السـودان الشـرقية لتجـاور الحبشة ، بل إنها اتجهت أيضا إلى النيل ، وأخذت تنتشر في الأراضى الواقعة بين مدينة (أبو حمد) والخرطوم ، وهـذه الرحلـة لا شـك أنهـا جـاءت عـن طريق النزوح من صحراء البجة غربا إلى (أبو حمد) ، ثم من هناك صعـدت جنوبا على مجرى النيل ، وانتشرت فى أراضى مملكة علوة النوبية التـى علـى نهر النيل . ومن المتوقع أن جهينة لم تكن وحدها هى التى هاجرت إلى هـذه المناطق ، بل ربما كانت معهـا قبـائل أخـرى صغـيرة الحجـم ، قليلـة العـدد ، فأنشأت مع جهينة أحلافا مكنتها من إيجاد موضع قدم لها فى تلك البقاع .

ومما يلاحظ أن القبائل العربية فى عصر الاضطهاد المملوكي لم تكـن تعيش كقبائل مفردة . بـل إنهـا كونـت لنفسـها أحلافـا متماسـكة حتـى إن المؤرخين العرب من أمثال المقريزى والقلقشـندي والنويـرى وغـيرهم أخـذوا يصنفونهم على أنهم عرب أو عربان ، وقل أن يذكروا اسم قبيلة بعينها على أن لها نشـاطا فـى الأراضـي السـودانية . لقـد كـان هنـاك عربـان يواجهـون اضطهادا مملوكيا ، وكان هذا الاضطهاد أحسن بوتقـة لصهـر النعـرة القبليـة من يمنية وعدنانية فى السودان ، كما ساعد هذا الاضطهـاد المملوكـي علـى أن يتناسى العرب كثيرا من صراعاتهم القبلية فـى وادي النيـل فـاتحدوا أمـام الاعتداءات المملوكية . ولكن ، مع كـل ، فـان قبيلـة جهينـة اسـتطاعت أن تجعل لنفسها مركزا سياسيا وحربيا فـى السـودان لفـت نظـر ابـن خلـدون

إليها ، فجعله يتحدث عن نشاطها السياسي والعسكري سواء أكان ذلك ضد النوبة أم الأحباش .

كانت هناك سمات خلقية تتصف بها جهينة ، وقد تشاركها فيها الكثير من سائر القبائل العربية الأخرى . وإننا نتبين هذه المثل الأخلاقية فيما فعلته، وقالته، وما قيل عنها . فجهينة من حيث الشجاعة والفروسية والموت دفاعا عن العقيدة أوجدت لنفسها حسن الأحدوثة ورفعة الشأن . وهاهو النبى صلى ا لله عليه وسلم يذكر أن بين القليل من القبائل المسلمة التى وقفت معه وقفة الأبطال المؤمنين فى واقعة حنين قبيلة جهينة . فقد روى أن النبي (ص) قال بعد غزوة حنين ، وكان عدد الذين قاتلوا معه ألف رجل منهم ، فمدحهم النبي (ص) وقال : " الأنصار ومزينة وجهينة وغفار وأسجع ومن كان من بنى عبد ا لله موالى دون الناس ، وا لله ورسوله مولاهم " . [١٣]

هذه هى جهينة السباقة فى ميدان الجهاد فى سبيل ا لله منذ عهد الرسالة النبوية . فهم ، كما نرى ، رجال حرب ونجدة ، ومع هذه الصفات الأخلاقية البارزة فيهم فإن شاعرهم الفذ عبد الشارق بن عبد العزى الجهنى كان شاعرا له أخلاق عالية تبعده عن الحديث السوقي ، أو الفخر الكاذب ، وذم أعدائه دون وجه حق . ففى أبياته التى أوردها أبو تمام فى حماسته نجد أنه وصفها بأنها من المنصفات . وفى الحقيقة فإن هذا الشاعر الجهني لم يترك فضيلة من فضائل القتال إلا وصف بها أعداءه كما وصف بها قبيلته . وأوضح بشئ كثير من الصدق والتقدير الجم لخصومه بأنه إنما لقي صنوه فى معركته تلك التى خاضها ضد قبيلة بهثة فى الاستماتة والشجاعة والإصرار

---

[١٣] الجامع الصحيح لمسلم ج ٧ ص ١٧٨

والضرب والصبر . وقد كان منصفا إلى درجة أنه قارن بين من قتل من صفوفه بمن لقي حتفه من صفوف أعدائه ، وكما قُتل أقيال من هنا، قتل مثلهم من الأبطال هناك ، وأن القبيلتين المتحاربتين تقدمتا للصدام ، وجرد رجالهم السيوف ، ولمعت النصال ، واشتدوا فى طلب القتال ، فلم يبق سيف سليم فى أيدى هؤلاء ، ولم يبق رمح مقوم فى أكف أولئك . ولم يبق لهؤلاء أرجل تسير بهم إلى أعدائهم ، ولم تبق لأولئك أقدام تمضى بهم إلى منازعيهم ، وإنهم بالرغم من كل ذلك الكلال والإنهاك ، كان كلاهما يود لو بقيت فيه بقية ليسير نحو خصومه ليفتك بهم ، ولكن الأجساد كانت قد أرهقت فلم تستطع حراكا . يقول عبد الشارق الجهنى الرجل الصادق ، والمخبر المنصف : (وقال عبد الشارق بن عبد العزى الجهنى وهى من المنصفات [١٤])

ألا حُييتِ عَنّا يأ رَدْينا نحييها وإن كَرُمَتْ عَلَيْنا [١٥]

رُدَيْنُة لو رأيتِ غداةَ جئنا على أضمَاتنا وقد اخْتَوَيْنا [١٦]

فأرسلنا أبا عمروٍ ربيئا فقال ألا انعموا بالقوم عيْنا [١٧]

---

[١٤] قال أبو الفتح : الشارق اسم صنم لهم ومثل ذلك عبد يغوث وعبد ود ونحوه .

[١٥] يا ردينا مرخم ردينا وهو من أسماء النساء وقوله نحييها تحية الوداع أى نودعها ونفارقها وان كرمت علينا قال أبو رياش كان الرجل اذا عرف بحب المرأة لا يزوجوه اياها واذا سلم عليها عرف أنه يهواها فيقول نسلم عليها ونحييها وان كان فى ذلك يأس منها وهذا من افراط شوقه اليها وغلبة هواه بها .

[١٦] على أضماتنا الأضم شدة الحقد وقد اختوينا أى لم نطعم شيئا وكانوا يكرهون الطعام عند الحرب مخافة أن يطعن أحدهم فى بطنه فيخرج منه الطعام فيكون ذلك عارا وجواب لولا محذوف لأن أبيات القصيدة مقصورة على بيان القصة والتقدير لو رأيت غداة جئنا على احقادنا لم نطعم شيئا لرأيت أمرا عظيما .

ودُسوا فارسا منهم عِشاء فلم نُغْدر بفارسهم لدَيْنا [18]

فجاؤوا عارضا بَرَدا وجئنا كمثل السيل نركب وازعَيْنا [19]

تنادوا يالبْهَثةُ إذ رأونا فقلنا أحسني ضربا جُهَينا [20]

سمعنا دعوةً عن ظهر غيبٍ فجُلْنا جولة ثم ارعَوَيْنا [21]

فلما أن تواقفنا قليلا أَنَخْنا للكلا كل فارتمينا [22]

فلما لم ندع قوسا وسهما مشينا نحوهم ومشوا الينا [23]

---

[17] الربئ والربيئة الطليعة وقوله انعموا بالقوم عينا بشارة لهم بقلة عدد عدوهم – يقول أرسلنا أبا عمرو ربيأ أى أرسلناه طليعة يكشف لنا حقيقة العدو ألا أنعموا بالقوم عينا يعنى أن العدو فى قلة عدد وكان الأحسن أن يقول عيونا ولكنه وضع المفرد موضع الجمع وعينا منصوب على التمييز .

[18] ودسوا فارسا الخ أصل الدس اخفاء الشئ تحت غيره ثم استعمل هنا فى ارسال الفارس سرا تحت الليل – يقول أرسلوا الينا فارسا فى السر ليكشف لهم عن أخبارنا فلم نحبسه عندنا ونقطع الأخبار عنهم لأن ذلك غدر بهم .

[19] العارض السحاب المعترض فى الأفق والبرد الذى فيه البرد بفتحتين والوازع الذى يرتب الجيش ويصححه ويقدم ويؤخر ومعنى نركب وازعينا لا ننقاد لمن يريد ضبطنا من الجيشين جميعا ولفظ التثنية المراد به الكثرة ولكنه ثنى على عادتهم – يقول تسارعوا مقبلين نحونا وكأنهم فى كثرتهم وتعجلهم قطعة من السحاب فيها برد ونحن لكثرتنا على ما يعترض طريقنا كالسيل الذى لا يبقى ولا يذر لا ننقاد لمن يريد ضبطنا .

[20] تنادوا يا لبهثة أى دعوا بهثة وبهثة بطن من العرب وجهينة كذلك – يقول لما رأونا استصرخوا ببهثة فقابلناهم وقذفناهم بما يكرهون وقلنا يا جهين احسنى فيهم الضرب والطعن

[21] سمعنا دعوة الخ يقال فلان فعل كذا بظهر الغيب أى فعله بمكان لا يرى ولا يبصر وأتاه خبر عن ظهر غيب أى انتهى اليه من شخص غائب ويقال أرعوى فلان عن كذا اذا انكف عنه ورجع – أى سمعنا دعوة تأدت من مكان غائب عن عيوننا فدرنا دورة ثم رجعنا الى أماكننا .

[22] فلما أن تواقفنا أى وقف بعضنا مع بعض فى الحرب وقوله أنخنا للكلا كل اللام فيه زائدة أو بمعنى على كما فى قوله (وتله للجبين) أى عليه وقوله فارتمينا من قولهم رمى السهم عن القوس ورامية مراماة يريد أنهم تراموا بالسهام – يقول فلما تواقفنا زمانا قليلا للمبارزة نزلنا واستوينا على الصدور لأن ذلك أمكن للمناضلة والمراماة

[23] فلما لم ندع الخ – معناه لما رمينا ففنيت السهام وانكسرت القسى تقدمنا اليهم فتجالدنا بالسيوف

تلألؤ مْزَنةٍ برقت لأخرى إذا حَجَلوا بأسياف ردينا [٢٤]

شددنا شدة فقتلت منهم ثلاثة فتية وقتلت قَيْنا [٢٥]

وشدوا شدة أخرى فجَرّوا بأرجل مثلهم ورموا جُوَيْنا [٢٦]

وكان أخي جُوَيْنٌ ذا حِفاظ وكان القتل للفتيان زَيْنا [٢٧]

فآبوا بالرماح مكسراتٍ وأُبْنا بالسيوف قد انحنينا [٢٨]

فباتوا بالصعيد لهم إحاحٌ ولو خفت لنا الكَلْمَى سَرينا [٢٩]

ولم تضمحل قوة جهينة فى أى وقت من الأوقات رغم الظروف القاسية التى مرت بها ، فقد كانت دائما فى طليعة القبائل العربية التى تدافع عن حقوقها ضد الاستبداد المملوكي أو الحبشي أو غيره . وكان وجودها فى السودان حين نزحت إليه له وزنه ، وعامل استقرار لغيرها من القبائل أو الحكام

---

[٢٤] تلألؤ مزنة منصوب مما دل عليه مشينا ومشوا لأن فيه تلألؤ السلاح من الفريقين وقوله اذا حجلوا من الحجلان وهو أن يمشى الانسان كالمقيد وردينا من الردينان وهو المشى بسرعة – يقول أنهم برزوا الينا وبرزنا اليهم وللجميع تلألؤ كتلألؤ مزنة لمزنة أخرى لما فى الفريقين من كثرة السلاح فاذا حجلوا الينا بالسيوف سبقنا اليهم وأسرعنا نحوهم بالضرب .

[٢٥] وقتلت قينا أى قتلت فارسهم المشهور المسمى قينا فلذلك سماه ولم يسم أحدا من الفتية

[٢٦] وشدوا شدة أخرى أى شدوا شدة ثانية بعد ما شددنا قبلهم شدة أولى ورموا جوينا أى قتلوه

[٢٧] ذا حفاظ أى صاحب محافظة ينبه بهذا البيت على أن جوينا لحسن محافظته على الشرف لم يزل ثابتا فى الحرب حتى قتل فيها وأن قتلته كانت محمودة تزين ولا تشين

[٢٨] فآبوا بالرماح الخ أى رجعوا برماحنا مكسرة فى أجسامهم ورجعنا بسيوفنا محنية بأعمالنا اياها فى البيض والدروع التى عليهم وقت الجلاد معهم

[٢٩] لهم احاح أى لهم صوت من صدورهم يشبه الأنين والأحاح العطش أيضا يقول أن هؤلاء القوم باتوا مصرعين مجندلين على الأرض ولهم صوت من صدورهم وأنين من أحشائهم وآلام الجراح منعتهم عن السرى وحبستهم عن السير ، ولو خفت جراحات الجرحى وخفوا معنا فى السير لسرنا الى قومنا فى برد الليل .

الذين تحالفوا معها وخاصة إن كان حكام الأقاليم من بني أبي طالب الأشراف .

أما مثلها العليا فى الجهاد والكرم فهى أيضا كانت معروفة بهما ولم تتخل عنهما مطلقا رغم الكوارث الطبيعية التى حلت بها . وكان من بين هذه الكوارث الطبيعية التى نزلت بها وبغيرها من القبائل العربية فى صعيد مصر ما رواه لنا المقريزى وما ذكرناه فى مستهل هذا السفر عن كرم الضيافة التى كانت تتميز بها قبائل الصعيد قبل أن يعم الصعيد الجفاف عدة سنوات فيخلى العرب تلك الديار سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣ م وينزحون إلى السودان لكى يلحقوا بمن سبقهم ممن ذهب إلى هناك تحت وطأة الاضطهاد المملوكي ، ورأينا كيف أن كرمهم وحسن وفادتهم وأريحتهم قد رحلت معهم إلى مناطق السودان المختلفة وخاصة فى أرض الجزيرة . وقد ذهبت إلى هناك عشائر كثيرة من جهينة ومن أصولها من قضاعة وسكنوا فى تلك البلاد ، ثم ما لبث أن ازداد عددهم ، وانتشرت عشائرهم ، وانسلخت منهم قبائل أخرى كثيرة كلما شعر أحد أبنائهم بشيء من الأهمية ، وأراد أن يكون كأسلافه ذا اسم معروف بطيب الأحدوثة ، والسمعة الحسنة ، والصيت البعيد ، ومن ثم فقد كثرت شعبهم ، ولما كثرت أعدادها ، واشتدت سواعدها أصبحت قبائل معروفة واكتفت بأن يرجع أصلها إلى جهينة أو غيرها من القبائل الأخرى .